لا أعتقد أن أمة تتمتع بقدر بسيط من الوعي الاستراتيجي يبلغ بها التمسك الجامد بالاعراف القانونية الى درجه التهاون في المعارك المصيريه . فشواهد التاريخ القديم والحديث مليئه بحوادث الخرق ، كسبا للمزايا الستراتيجية او احتياطا دون وقوعها في أيدي العدو . وما الحرب الوقائية او الهجوم غير المباشر في بعض حالاته الا مثلين من أمثلة الدوافع النابعة عن الوعي الاستراتيجي . اننا لا ننكر ان بعض التدخل قد حصل من قبل بعض الجيوش العربية وبخاصة الجيش السوري ، ولكنه كان تدخلا محدودا وعلى أساس التنكر ، وغالبا ما كان يحصل متأخرا عن أوانه .

قد يكون لتلك المواقف العربية بعض العذر بسبب ضعف الامكانيات آنذاك . ولكن المراعاة التامة للقانون كانت أرجح في الاعتبار والتنفيذ — ولو على أساس التنكر — كما فعل الجيش السوري . اما العدو فقد كان ينتقل من خرق الى خرق ، ومن احتلال الى احتلال ، ويضرب المثل على نفسه دون أن يقلد فيما يفعل ، ناهيك بوجوده في الاصل فهو غاية كل خرق .

ذكرنا تلك العوامل الثلاثة التي كان العرب يرزحون تحتها ، والتي كانت تؤثر على موقفهم الدفاعي العام فتزيده كل يوم ضعفا . ولا بد لنا من ان نذكر عاملا رابعا يتعلق بالعدو وبنظامه الدفاعي وهو القوة الضاربة . لقد كان للعدو قوة ضاربة هامة ، يحركها من منطقة الى أخرى ، علاوة على القوات الاحتياطية المحلية في المناطق . هذه القوات الضاربة والمحلية الاحتياطية قد وفرها له نظامه الدفاعي ، القائم على المستعمرات المحصنة التي كانت تدافع عن نفسها بنفسها ، بصورة مستقلة او بمشاركة غيرها من المستعمرات المجاورة حسب التنظيم الدفاعي ، فقد كانت كل منطقة مؤلفة من عدة مستعمرات ، تخضع في قيادتها وتنظيمها الدفاعي الى « مستعمرة أم »، وقيادة واحدة تشرف على الدفاع ، وتوجه القوات الاحتياطية المتوفرة لديها (غير المشتبكة) حسبما يتطلب الموقف . وهذه الكتلة من المستعمرات تساعدها الكتلة المجاورة الى أن تصل الى أقصى العمق أو يحين تدخل الاحتياط الستراتيجي حسب قرار القيادة العامة .

وتقودنا هذه المناقشة السريعة المؤلمة الى عامل خامس يتعلق بالعدو أيضا ويكاد يشكل الحصيلة الكاملة للعوامل الاربعة السابقة . وهو ميزان القوى فقد كان لمصلحة العدو عددا وعدة وتنظيما وتدريبا ووحدة قيادة أكثر مما كان في صفوف العرب ، وعلى هذا الاساس فقد كان السبق الستراتيجي في احتلال المدن العربية والمواقع الهامة قبيل الخامس عشر من أيار (موعد جلاء الانكليز وموعد تدخل الجيوش العربية المرتقب دون موانع قانونية) هذا السبق قد كان في غالبيته في مصلحة العدو لما كان يوفره له ميزان القوى العام كما أسلفنا ، وذلك بالنسبة الى جيش الانقاذ والمقاومة الفلسطينية .

وجدير بنا أن نذكر بكل فخر واعتزاز أن اختلال الموازين جملة وتفصيلا لم يؤثر على روح القتال ولا على الروح المعنوية عند المقاتلين العرب الا بمقدار لا يقاس بنسبة التفوق الظاهر ، وهذا مثال من أروع الامثلة على ان التفوق المادي ليس كل شيء في المعركة وليس كل شيء في المصير ، خاصة عندما يكون الطرف الاضعف مدافعا في حرب عادلة ، ويكون « هدف الرهان » بالنسبة اليه يعادل وجوده .

معركة الهراوي :

تعتبر هذه المعركة مثلا من أمثلة التسابق الستراتيجي قام به العرب . فهي وان وقعت قبيل سقوط صفد الا انها كانت تشكل حافزا استراتيجيا هاما بالنسبة لقيادة